مركز شؤون المرأة - غزة
Women's Affairs Center - Gaza

لأننا نعاني من إعاقة بصرية، لم نستطع فعل شيء سوى الثبات في مكاننا، إما الموت وإما النجاة

"كانت لحظات بين الحياة والموت، كأن الزمن توقف، نسمع وقع الأقدام من حولنا وصوت الصراخ يتعالى، بينما نحن عاجزون لا نملك سوى ما لدينا، نتمسك بالأمل ونستودع أرواحنا بين يدي اللّه. هي دقائق لكنها حفرت في ذاكرتنا عمرًا كاملًا من الرعب، وستبقى شاهدًا على قسوة الحرب وظلمها للضعفاء"

# ذوي/ات الإعاقة في زمن النزوح

لم تكن دينا (25 عامًا)، من سكان بلدة بيت حانون شمال قطاع غزة، تشعر بثقل إعاقتها البصرية الوراثية، التي يشترك بها عدد من أفراد أسرتها المكوّنة من سبعة أشخاص، إلا بعدما عصفت حرب الإبادة الإسرائيلية بحياتهم ودفعتهم إلى رحلة نزوح متواصلة وسط ظروف إنسانية ومعيشية بالغة القسوة.

تخرجت دينا عام 2021 بتخصص تربية اللغة العربية، وبرغم الإعاقة البصرية التي ولدت بها، لم تستسلم وأتمّت تعليمها بنجاح. اليوم، تواجه تحديات أكبر، إذ تجد نفسها محاطة بأسرة مثقلة بالمرض والإعاقة، ما يزيد من صعوبة حياتها اليومية. فهي تعيش مع والدها الذي يعاني من أمراض الضغط والسكري والغضروف، ووالدتها، إضافةً إلى شقيقها البالغ من العمر (20 عامًا)، المصاب بإعاقة بصرية ومرض الصرع الذي لا يتوفر له علاج حاليًا في غزة. كما ترافقها شقيقتها البالغة (23 عامًا) والمصابة بإعاقة عقلية، وشقيقتها البالغة (18 عامًا) والمصابة بإعاقة بصرية، والتي تحتاج إلى السفر للخارج لإجراء فحوصات وعلاج لأمراض أخرى لا تتوفر إمكانياتها الطبية في غزة، ما يزيد من ثقل الأعباء المعيشية والنفسية على الأسرة بأكملها.

ومع اندلاع الحرب في السابع من أكتوبر 2023، اضطرت عائلة دينا للنزوح في ساعات ما بعد العصر من منزلها إلى إحدى مدارس المدينة بسبب القصف العنيف للمنطقة. لم يدم بقائهم هناك سوى أسبوع واحد، إذ اشتدت وتيرة القصف، وألقت طائرات الاحتلال الإسرائيلي قنابل الفسفور الأبيض عليهم، ما أجبرهم على النزوح مجددًا نحو إحدى مدارس معسكر جباليا شمال قطاع غزة. لكنهم لم يجدوا هناك أمانًا ولا استقرارًا، بل كان الوضع أكثر سوءًا وقسوة.

بعد عشرة أيام فقط، أُجبرت العائلة مجددًا على الهرب، تنفيذًا لأوامر الإخلاء التي فرضها جيش الاحتلال الإسرائيلي عبر خريطة الإخلاء، فاتجهوا نحو مدينة رفح جنوب القطاع. وهناك عاشوا سبعة أشهر كاملة في ظروف إنسانية مأساوية، إذ لم يجدوا مأوى سوى البقاء تحت درج إحدى المدارس التابعة للأونروا، في بيئة قاسية لا تلائم احتياجات دينا وأشقائها من ذوي/ات الإعاقة البصرية.

وتروي دينا معاناتها بقولها: "لم تكن هناك أي جهة معينة تنظر إلينا كعائلة لها احتياجات خاصة ومعاملة تختلف عن بقية الأشخاص الأصحاء، ولم يلتفت لنا أحد. حاولت أن أبحث عن عمل لأساعد عائلتي، لكنني للأسف الشديد لم أجد أي فرصة".

وتضيف بحزن: "ما زاد الوضع سوءًا، أن عائلتي تعرضت لحزام ناري في محيط المدرسة التي نقيم بها، فكان الأمر صعبًا للغاية، خاصة أننا كنا وحدنا في المكان، لا نستطيع الهروب، حيث إن الجميع كان يهرب ويركض مسرعًا للفرار، ولكن لأننا نعاني من إعاقة بصرية، لم نستطع فعل شيء سوى الثبات في مكاننا، إما الموت وإما النجاة".

تقول دينا: "كانت لحظات بين الحياة والموت، كأن الزمن توقف، نسمع وقع الأقدام من حولنا وصوت الصراخ يتعالى، بينما نحن عاجزون لا نملك سوى ما لدينا، نتمسك بالأمل ونستودع أرواحنا بين يدي الله. هي دقائق لكنها حفرت في ذاكرتنا عمرًا كاملًا من الرعب، وستبقى شاهدًا على قسوة الحرب وظلمها للضعفاء".

لكن رحلة النزوح لم تتوقف عند هذا الحد، إذ اشتد الوضع في مدينة رفح في مايو 2024 سوءًا، فاضطرت العائلة إلى النزوح مجددًا تحت النار والخطر المدقع نحو مدينة خانيونس جنوب قطاع غزة، وتحديدًا منطقة الإقليم. غير أن الظروف هناك كانت صعبة هي الأخرى، ولم يمكثوا طويلًا حتى وجدوا أنفسهم مضطرين للانتقال مرة أخرى إلى شاطئ بحر القرارة في خانيونس. وهناك عاشوا أقسى فصول مأساتهم، إذ لم يكن لهم فراش ولا غطاء، ولا طعام، ولا حتى خيمة تقيهم حر الشمس أو برد الليل، لتتحول حياتهم إلى مأساة حقيقية بكل ما تحمله الكلمة من معنى، خصوصًا لعائلة من ذوي الإعاقة لا تمتلك أدنى مقومات الحياة الأساسية. فكان كل نزوح أشد وطأة من الذي قبله.

دخلت الهدنة الإنسانية المؤقتة حيز التنفيذ في التاسع عشر من يناير 2025، وشعرت دينا حينها بسعادة غامرة رغم كل الأسى والألم والحزن الذي تراكم في قلبها خلال فترة النزوح الطويلة. وعادت دينا وعائلتها سريعًا إلى موطنهم في بيت حانون، إلا أن العودة لم تكن سهلة، فالتحديات المعيشية وإعادة ترتيب حياتهم وسط الدمار الذي خلفته الحرب كانت لا تزال كبيرة.

وتروي دينا معاناتهم خلال العودة قائلة: "كان وقتها الشتاء قد حل والبرد القارس، فكانوا يتحركون تحت المطر والطين والتلوث، ولا يوجد هناك من يساندنا، خاصة ونحن من ذوي الاحتياجات الخاصة. كان الطريق بالنسبة للأصحاء طويلًا وشاقًا وصعبًا، مليئًا بالحفر والحجارة، فكيف بنا نحن؟ لم نجد حينها أي وسيلة نقل، فكان الأمر مؤلمًا للغاية".

بالنسبة لدينا وأشقائها، كانت كل خطوة معركة، وكل حفرة تهديدًا بالسقوط، وكل قطرة مطر تزيد من قسوة الرحلة. لم يكن الطريق مجرد مسافة يقطعونها، بل اختبارًا لصبرهم وقوة إيمانهم، ومشهدًا يختصر ظلم الحرب ومعاناة الضعفاء. ومع ذلك، ظل الأمل يرافقهم، كونهم سيعودون إلى موطنهم وأرضهم وبيتهم . وحين اقتربت دينا وعائلتها من مدينتهم بيت حانون، كانت قلوبهم تسبق خطواتهم مفعمة بالشوق والفرح، إلا أن ما استقبلهم لم يكن دفء الذكريات، بل صمتًا ثقيلًا، ورائحة رماد، وأصواتًا غريبة لا تشبه مدينتهم. في تلك اللحظة تحولت سعادتهم إلى حزن عميق، إذ أدركت العائلة أن ما كانوا ينتظرونه لم يعد كما كان.

وتضيف دينا: "المدينة كانت مدمرة تمامًا، لا يوجد لها معالم. وكما هو معروف، فإن بيت حانون أرضها خصبة، فعندما كانت تمطر تصبح موحلة جدًا، وهذه من أكثر العوائق التي كنا نواجهها. نحن ككفيفين لا نستطيع الذهاب وحدنا إلى أي مكان دون وجود مرافق، حتى عندما نريد الذهاب لقضاء الحاجة أو الخروج من الخيمة، كنا نحسب لذهابنا ألف حساب".

لكن المعاناة لم تنتهِ، إذ انتهت الهدنة المؤقتة في الثامن عشر من مارس 2025، فاضطرت دينا وعائلتها مجددًا للنزوح إلى شارع الثورة غرب مدينة غزة. وعاد التعب والألم من جديد، حيث مكثوا في خيمة مصنوعة من بطانيات بالية ممزقة، تتسرب مياه المطر من خلالها، ولا تصلح للإيواء، لتستمر رحلة المعاناة وسط ظروف صعبة للغاية.

وتقول دينا: "أرهقت كثيرًا، فكنت بمثابة الأم والأب لعائلتي، أقوم بكل شيء؛ أبحث عن خيمة، أطهو الطعام، أذهب للعثور على دواء لإخوتي، وأبحث عن حطب للطهي والدفء. الحياة صعبة للغاية، ورغم وجود الهدنة الإنسانية، إلا أن منطقتي – منطقة حدودية – لم تكن تتوقف فيها طلقات النار، وكان الخوف مستمرًا، فلم تكن هدنة كاملة بكل مقاييسها من قبل الاحتلال الإسرائيلي".

وتضيف: "أقصى أمنياتي الآن هو النزوح قبل أن يزداد الوضع سوءًا في مدينة غزة، حيث لا تستطيع عائلتي بوضعهم الخاص التحرك تحت النار مجددًا. لكنني آسفُ أن عائلتنا لا تملك المال الكافي للتنقل والنزوح، ولا يوجد لدينا مكان تأوِي إليه في جنوب القطاع. لذا، آمل أن تتوقف الحرب وتنتهي".